يوم عصيب

•

موت سليمان

كان بنو مروان اذا أرادوا غزو الصائفة وقتال الروم نزلوا عند مرج معشب نزهٍ في قرية يقال لها « دابق » قرب حلب من أعمال عَزَاز ، وبينها وبين حلب أربعة فراسخ ، فلما أراد سليمان الصائفة عسكر بدابق ونزل مرجها المعشب ، وعزم ألا يرجع حتى يفتح القسطنطينية أو تؤدي الروم الجزية ، فشتّى بدابق شتاء بعد شتاء .

وبينما هو كذلك يقيم دخل عليه المفضّل بن المهلب في يوم جمعة ، فدعا سليمان بثياب فلبسها فلم تعجبه ، فدعا بغيرها فلم تعجبه ، ثم دعا بثياب خضر سوسيّة من خزّ ، كان بعث بها يزيد بن المهلّب فلبسها واعتمّ ونظر في المرآة وقال : يا بن المهلب ، أعجبتك ؟ فقال المفضل : نعم ، فحسر سليمان عن ذراعيه ثم قال : انا الملك الفتى !

ثم ركب سليمان عشية يومه معتزاً مغتراً . فمرّ بتلّ هناك ، فرأى عليه قبراً ، فقال : مَنْ صاحب هذا القبر ؟ قالوا : هذا قبر عبد الله بن مسافع القرشيّ ، فقال : يا ويحه ! لقد أمسى قبره بدار غربة ! [١٥٤]

ورجع سليمان إلى بيته فبات مريضاً ، وانفرد وحده فلم يكن يدخل عليه حين ثقل به المرض غير رجاء بن حيوة ، ثم مات ، فسجّاه رجاء بقطيفة خضراء وأغلق عليه الباب ، وأرسلت إليه زوجته تسأله كيف أصبح ؟ فقال رجاء : نام وتغطّى . فنظر إليه الرسول نائماً مغطّى ، فرجع فأخبرها ، فقبلت ولم تأخذها ريبة . قال رجاء : وأجلستُ على الباب من أثق به ، وأوصيته ألا يريم حتى آتيه ، ولا يُدخل على الخليفة احدا .

ثم خَرَجَ رجاء إلى مسجد دابق ومن حوله الحرس ، وجمع اليه امراء بني مروان وأهل البيعة الذين سبقوا فبايعوا بين يدي سليمان وأخرج لهم عهده المطويّ الذي عرفوا وقال لهم : بايعوا لمن فيه فقالوا : إنا بايعنا مرة ، فقال لهم : بايعوا الذي في هذا الكتاب ولا تختلفوا فيُطمع فيكم ، فبايعوا رجلًا رجلًا . فلما فرغ وقد أحكم أمره قال لهم : أعظم الله أجركم في امير المؤمنين ! لقد مات . [١٥٥]

ثم فض رجاء كتاب العهد ليقرأه عليهم ، فعلت الصدور وهبطت ، واطّردت الأنفاس واحتبست ، وجعلت أسماعهم لا تعي مما كتب سليمان شيئاً ، ولا تريد أن تسمع شيئاً غير اسم

---

(١٥٤) معجم البلدان ج ٤ ص ٣

(١٥٥) ابن الجوزي ص ٤٩

الخليفة الجديد . فلما بلغ رجاء الى ذكر عمر كادت الصعقة تأخذ بني مروان .

بيعة عمر

ولم يطق هشام بن عبد الملك صبراً فقال : هاه ! لا والله لا أبايع ! فسلّ حرسيّ من أهل الشام سيفه وقال : تقول لأمرٍ قضاه أمير المؤمنين : هاه ! فقال هشام نسمع ونطيع ان كان رجلاً من بني عبد الملك. فقال له رجاء : اذن أضرب عنقك! فجذبه الناس حتى سقط الى الارض وقالوا : سمعنا وأطعنا . ثم أسرع رجاء فقال : ومن بعد عمر يزيد بن عبد الملك، فقالوا وقال هشام: سمعنا وأطعنا . وكذلك صدقت نبوءة سليمان في أنهم لا يقبلون بخلافة عمر الا اذا وثقوا انها تزول عنه الى غيره من أبناء عبدالملك ابن مروان .

أما عمر فكان قد قعد في أخريات المسجد يسترجع لما وقع فيه ويقول: والله ان هذا الأمر ما سألته قط في سرّ ولا علانية ! ومشى اليه رجاء مسلماً عليه بالامارة طالباً إليه أن يقوم إلى المنبر ، فقال عمر : أنشدك الله يا رجاء ! فقال له : أناشدك الله أن يضطرب بالناس حبْل![156] فعُقِر بعمر فلم يستطع النهوض ، فأخذ رجاء بضبعه ودنا به من المنبر ، فلم يقدر على الصعود فأصعده وأجلسه، فجلس طويلا لا يتكلم [157] والناس على لهفة ينتظرون ما يقول .

ثم وقف عمر فقال : أيها الناس ، إني قد ابتليت بهذا الأمر

(١٥٦) ابن عبد الحكم ص ٣٢

(١٥٧) ابن الجوزي ص ٥١

من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبةٍ له ولا مشورة من المسلمين واني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي . فاختاروا لأنفسكم ! ودهش الناس لما قال ، وأخذت راغبهم الحيرة وكارههم الفرحة ، وكادوا يضطربون ، فقام رجل من الانصار فقال: يا أميرالمؤمنين ذاك والله أسرع فيما يُكره ، ثم دنا من منبر عمر فقال له : ابسط يدك أبايعك . وفيما كان الانصاري يبايع عمر أول من بايع [١٥٨] كان الناس يصيحون في المسجد راضين وكارهين : قد اخترناك ورضينا بك فَلِ أمرنا باليمن والبركة .

فلما هدأت الاصوات ولم يبق من معارض حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال : أوصيكم بتقوى الله فانّ تقوى الله خَلفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله عز وجل خلف . فاعملوا لآخرتكم ، فانه من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه . وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم ، وإن من لا يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم أباً حيًا لمعرقٌ في الموت ! وان هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ولا في نبيها ولا في كتابها، وانما اختلفوا في الدينار والدرهم . واني والله لا أعطي أحداً باطلًا ، ولا أمنع أحداً حقاً — ثم رفع صوته فقال : يأيها الناس ، من أطاع الله فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . اطيعوني ما أطعت الله ، فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ثم نزل [١٥٩] .

---

(١٥٨) ابن الجوزي ص ٥٥

(١٥٩) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٤

فاستقرت له الخلافة منذ ذلك اليوم وكان يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين [١٦٠]

ونزل عمر عن المنبر فجلس قليلاً بجانبه ، وأدخل رأسه بين ركبتيه وبكى ، فعاد الناس يهمسون في آذان الناس ويرجفون قائلين : عمر يبكي فرحاً بالخلافة ! [١٦١] ثم قاموا فركب الأمراء ومشى ، فحملوا سليمان الى قبره ، فأضجعوه على تلّ سليمان في دابق الى جنب عبدالله بن مسافع القرشيّ ، في مثل العشية التي كان مرّ فيها سليمان على القبر الغريب ، وفي يوم جمعة مثل اليوم الذي كان قد مرّ فيه ! [١٦٢] ثم نزل عمر قبر سليمان هو وثلاثة من ولده، فلما تناولوه خيل إليهم أنه تحرك على أيديهم ، فقال بعض ولده : عاش والله أبي فقال : لا والله ؛ ولكن عوجل أبوك !

وأرجف الأمراء والناس بعمر فقالوا : دَفن سليمان حيا ! ولم تمض المدة التي تكون بين غيبة الموت والدفن لعلها تكون إغماءَة. وزاد إرجافهم به حين علموا أنه كان قد انكبّ قبل دفن سليمان على كتب كتبها بيده وأنفذها من فوره . انكب انكبابا على ثلاثة كتب فأنفذها الى الأطراف بأوامره . أما هو فكتبها لأنها كانت عهداً بينه وبين الله ليفعلنّها عجلان إذا ولي الأمر، فلم يسعْه أن يؤخر ما عاهد الله عليه ، فأمضاه من فوره . وأما الأمراء والناس فقالوا : ما هذه العجلة ؟ أما كان يصبر الى أن يرجع من

---

(١٦٠) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٢

(١٦١) ابن عبد الحكم ص ١٤٩

(١٦٢) معجم البلدان ج ٤ ص ٣

دفن سليمان ؟ هذا حب السلطان . . هذا الذي يكره ما دخل فيه ! [١٦٣]

وحزن الامراء من بني مروان وبني عبد الملك حين ظنوه عجّل بدفن سليمان ، وقالوا : لو لم يفرح بالخلافة يريد بهم أمراً لما استعجل . وبلغ الخبرُ عبدَ الرحمن بن الحكم بن أبي العاص فكتب لى هشام بن عبد الملك يوبّخه ويقول :

بلغ هشاماً والذين تجمّعوا ... بدابق عني لاوقيتم ردى الدهر
وأنتم أخذتم حتفكم بأكفكم ... كباحثة عن مدية وهي لاتدري
عشية بايعتم إماماً مخالفاً ... له شجَنٌ بين المدينة والحجر [١٦٤]

تهوين كتب

أما الكتب التي أنفذها قبل دفن سليمان وكتبها بيده : فكتاب إلى مصر وكتاب الى أبواب القسطنطينية وكتاب إلى إفريقية : ومضى الكتاب الأول بعزل أسامة بن زيد صاحب صدقات مصر الذي حلب الدر حتى انقطع والدم حتى انصرم ، وكان سليمان يمدحه على فعله دون ان يرتشي ، وكانت وصيته له بظلم أهل مصر قد افزعت عمر ، وودّ لو أن أسامة لم يفعل ولكنه فعل ، وكان غاشماً ظلوماً معتدياً في العقوبات ، يقطع الأيدي في خلاف ما يؤمر به ، ويشق اجواف الدواب فيدخل فيها القُطّاع ويطرحهم في جنوب مصر للتماسيح . فأقسم عمر ليكونن أول عمله لو تولى الأمر أن يعزل

(١٦٣) ابن عبد الحكم ص ٣٣ ـ اليعقوبي ج ٣ ص ٤٣ ـ ابن الجوزي ص ٥٢

(١٦٤) ابن عبد الحكم ص ١٤٨

أسامة بن زيد عن صدقات مصر ، وبرّ بوعده لله فعزله ، وحطّ المظالم عن أهلها وأراح أكبادهم . غفر الله له وحطّ عنه حساب القيامة ، وأوسع له في الجنة !

ومضى الكتاب الثاني برجوع مسلمة بن عبد الملك عن بلاد الروم، فقد كان يذوب مع جند المسلمين تحت وطأة الروم ذوبان الثلج تحت شمس الصيف ويكاد الجيش يفنى ولا يرجع منه أحد . وكان مسلمة أشرف على فتح القسطنطينية براً وبحراً وكاد يلج لولا أن خُدِع عنها وأحرز العدو طعامه وحوائجه واغلق أبوابها دونه . وبلغ خبرُ النكسة سليمان فغضب إذ خُدِع مسلمة وحلف ألا يُرْجعه منها حيا ، فاشتد المقام على المسلمين ، وهلكوا ، وأكل الناجون منهم لحوم الدواب . ولجّ سليمان في التصعيب عليهم وكان ذلك يَغُمّ عمر ، فلما ولي لم يسَعْه فيما بينه وبين الله أن يؤخر قفولهم ساعة . فذلك الذي حمله على تعجيل هذا الكتاب .

ومضى الكتاب الثالث بعزل يزيد بن أبي مسلم عن افريقية ، لأنه كان جباراً يُظهر التأله ويشتط في النفاذ ، بما جل أو صغر ، بالجور ومخالفة الحق . وكان رجلاً مختلطاً متناقضاً يأمر بتعذيب من يعذبه وهو يقول : سبحان الله والحمد لله ! شُدّ يا غلام موضع كذا . . لا إله إلا الله والله أكبر! شدّ يا غلام موضع كذا وكذا — لبعض مواضع التعذيب — فكانت حاله تلك شرّ الحالات . فكتب عمر بعزله في ثالث كتاب [١٦٥]

(١٦٥) ابن عبد الحكم ص ٣٣ ، ٣٤

ودار عمر حول نفسه كما تدور العاصفة فاقتلع جذور الباطل وطمس معالم الغرور ، ونوى أن يفني المال المجموع ويضيّع العقار الموروث ويبدد القطائع الموهوبة لا ليزهد زهادة تفقره وتفقر أهله ولا تغني الناس ، ولكن ليردّ الحقّ الى نصابه ويعيد العدالة الى مجراها ويبني من هيبة الحق ما هدمه السلف في القلوب ، ويوضح من معالم الاسلام ما طمسته الخطوب في الأذهان . وانه لماضٍ مثقل بأوزار غلاظ تصعب على كل تطهير . ولكن عمر صمم أن يطهر الارض مهما زلزلت في يده ، ولو قدر أن يطهّر بدنه من سموم الطعام الذي أكله من قبل ، وأن يمحو من الهواء نفحات الطيب التي نفحت فيه منه - لو قدر أن يفعل ذلك وأن يصهر شحمه ويذيب عظمه لفعل .

أما ثيابه فقد نزعها ، وغسل عنه ذلك الطيب ، ولبس كساء بثمانية دراهم ، وأما شعره فقد دعا الحجام فاخذ منه كل فضلة ، ثم أمر عمر ببيع ما عنده من متاع ومركب ولباس وعطر ، فبلغ بيعُه ثلاثة وعشرين ألف دينار أو أربعة وعشرين ، ثم دفع المال الى بيت المال .

ثم خرج عمر من بيته في دمشق حين قربت إليه مراكب الخلافة وسمع لها في الأرض هدّة ورجّة ، خرج فاذا الخيل مسرجة واذا الفرسان شاهرة واذا السرادقات منصوبة ، والحجر مضروبة ، واذا أمامه صاحب الشرطة يسير بين يديه فقال له عمر : تنحّ عني ،

مالي ولك ! انما أنا رجل من المسلمين، ثم سار[١٦٦] خائضاً الصفوف ملتمساً بغلته فركبها وسرّح الفرسان الشاهرين وأعفى كثيراً من الشرطة والحراس . كانوا اكثر من ستمائة فأعفى كثيرا منهم[١٦٧] وانصرف الى السرادقات والفرش يدفعها بقدمه حتى يفضي الى الحصير تحتها ، ثم دعا بمزاحم وقال له: هذه البراذين والخيل، وهذه السرادقات والحجر وهذه الفرش والرياش — ضمّها كلها الى بيت مال المسلمين[١٦٨] .

ثم حانت منه التفاتة فنظر الى ابن له قد تخرق قميصة من ازدحام الناس عليه فقال له : يا بنيّ ، أصلح جيب قميصك ، فانك لم تكن قطّ أحوج الى ذلك منك اليوم .

وبينما هو كذلك اذ أقبل خالد بن الريان قاتل الحروري بين يدي الوليد ايام الحجاج ، جاء يتلقى أوامر الخليفة لينفذها ؛ وما كاد عمر يراه حتى قال له : ضع هذا السيف عنك ، فوضعه ، وعزله، ثم جعل عمر يقول : اللهم اني قد وضعت لك خالد بن الريان فلا ترفعه ابدا ! وقبل الله دعاء عمر فيه فلم يعد له ذكر بين الناس في حياته ، ولحقه الذكر السيء بعد مماته. ثم نظر عمر في وجوه الحرس فرأى عمرو بن مهاجر الأنصاري، وكان تقياً فقال له عمر حين رآه: والله انك لتعلم ياعمرو أنه ما بيني وبينك قرابة الا قرابة الاسلام،

---

(١٦٦) الصفوة ج ٢ ص ٦٤ — حياة الحيوان ج ١ ص ٦٨

(١٦٧) ابن الجوزي ص ٩٨

(١٦٨) ابن عبد الحكم ص ١٦٨

(١٦٩) ابن عبد الحكم ص ١٥١

ولكني قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن ، ورأيتك تصلي في موضع تظن أن لا يراك أحد ، فرأيتك حسن الصلاة . خذ هذا السيف قد وليتك حرسي [١٧٠]

مطامع النساء

وخاف عمر أول ما خاف مطامع النساء ، وكان عنده امرأة لو شاءت أن تجتمع لديها الدنيا لاجتمعت ، حفيدة خليفة وبنت خليفة وأخت خلفاء ، وهي فاطمة بنت عبد الملك ، فمال اليها يقلم أظفارها منذ أول الأمر لئلا تقلق جنبه ، فأخذ جوهرها وحليّها — فيما أخذ — فأودعه بيت المال ، حتى إذا احتاج إليه المسلمون أنفقه عليهم .

وكأن عمر أحسّ أن فاطمة لم ترض كل الرضا بما فعل فمال اليها يخيرها بين أن تقيم عنده وبين ان تلحق بأهلها ، وأعلمها أنه انما شُغِل عن النساء بما في عنقه ، فرضيت أن تقيم وأن تدفع بحليّها الى بيت المال ثم لا تردّه اليها أبدا . [١٧١]

ولكنه حين ضيّق عليها وعلى أولادها في الطعام والملبس كما ضيّق على نفسه سألته أن يُجْري عليها خاصة ، فقال لها : ليس في مالي سعة ، قالت : فلم كنتَ انت تأخذ منهم ؟ قال : كانت المهنأة لي والاثم والتبعة عليهم ، أما اذ وليت فلا افعل ذلك فيكون اثمه عليّ .

وما زال عمر بزوجته حتى طبّعها بالورع فصارت مثلاً كريماً

---

(١٧٠) ابن الجوزي ص ٤٠

(١٧١) ابن عبد الحكم ص ٦٠

للنساء ، وكانت كلما عاودها الحنين الى حياة الترف تجد منه ميلاً عنها وادباراً فتعود الى طمأنينتها ووروعها حين يقول لها : اتعظي ان شئت او ذري ! [١٧٢] ولم تزل هي تحن لما كانت عليه حياتها من قبل فتقول : والله لوددت لو كان بيننا وبين هذه الامارة بُعْدُ ما بين المشرقين .

وكما فعل عمر بفاطمة فعل باولاده من رجال ونسوة: أرسلت اليه ابنته بلؤلؤة ، وقالت له : ان رأيت أن تبعث لي بأخت لها حتى أجعلها في أذنيَّ ! فأرسل لها بجمرتين ثم قال لها : ان استطعت أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك بعثت اليك بأخت لها [١٧٣]

وبلغه أن ابناً له اشترى فص خاتم بألف درهم فكتب اليه : عزيمةً مني عليك إلا بعتَ هذا الخاتم الذي اشتريته بألف درهم وتصدقتَ بثمنه واشتريت آخر بدرهم نقشت عليه : رحم الله امرءاً عرف قدره ! والسلام .

وكان الخدم حين استخلف عمر قد ظنوا أنهم قد سادوا الناس ، فلما صارت حالهم الى شرّ مما كانوا عليه حزنوا لولايته وتفرقوا عنه ، وكان له غلام يقال له درهم يحتطب له فقال له عمر حين استخلف ومضت ايام من خلافته : ما يقول الناس يا درهم ؟ قال : وما يقولون ! الناس كلهم بخير وأنا وأنت بشرّ ! قال عمر : وكيف ذلك ؟ قال : إني عهدتك قبل الخلافة عَطِراً لبّاساً فاره المركب طيب الطعام ، فلما وليتَ رجوتُ أن أستريح وأتخلص فزاد عملي

(١٧٢) ابن الجوزي ص ٧٥ ـ الخراج لأبي يوسف ص ١٧
(١٧٣) ابن عبد الحكم ص ١٦٣

شدة وصرتَ أنتَ في بلاء ! قال عمر : فأنت حر فـــاذهب عني ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه فرجا [١٧٤]

بيت سليمان

ولما فرغ من بيته اصطحب مولاه مزاحماً وجماعة من بني مروان وذهبوا الى بيت سليمان . وكان بات أولاد سليمان وبناته يفرغون الأدهان والطيب من هذه القوارير الى تلك ، ويلبسون ما كان مطوياً قشيباً من الثياب لم يلبس حتى يتكسر فيصير كأنه لُبِسَ — وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب ومس من الطيب فهو لولده ، وما لم يلبس ولم يمسّ فهو للخليفة من بعده — فلما جاء عمر وعرف مافعلوا ردّ القسمة وضمّ كل ماوجده الى بيت مال المسلمين .

وتناجى أبناء مروان وهم حوله فقالوا : أما المراكب وأما السرادقات والحجر والثوار والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان فيه ما علمنا ، وبقيت خصلة ، وهي الجواري : نعرضهنّ ، فعسى أن يكون فيهن ما تريدون ، وظنوا أنهم ربما دخلوا على قلبه بالجواري الحسان ، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده ! قالوا ذلك وتناجوا به فيما بينهم ، ولم يدروا أن عمر قد خاف مطامع النساء فرد فاطمة عنها ، وخافَ مطامـــع الرجال في النساء وعزم على ردها .

وجيء بالجواري فعرضن عليه كأمثال الدُّمى فنظر اليهن وسألهن واحدة واحدة عن اسمها وأهلها وبلدها وكيف جاءت ، فأخبرنه بكل ما سأل ، فسرّحهن عمر وردّهن الى أهلهنّ ، وقطع

(١٧٤) ابن الجوزي ص ١٧٥ — العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٥

على بني مروان آمالهم في إثارة الشهوة وحب البوار .

أول العمال

ثم انقطع عمر فغاب عن الناس ثلاث ليال، اضطرب لها وجوه بني مروان وبني أمية وأشراف الجند والعرب ، ووقفوا ببابه ينظرون ما يخرج عليهم منه . أما هو فقد أخذ مع مزاحم يجمعان السجلات : سجلات قطائعه وسجلات قطائع الأمراء وعهود عطاياهم والأموال التي تجري عليهم ، وكانت نصف ما في بيت المال او ثلثيه . فلما اجتمعت لديهما السجلات والكتب أمر عمر أن ينادَى بصلاة جامعة ، فاجتمع الناس وخرج عمر فصعد المنبر ووقف مزاحم دونه . وكان عمر يرتدي لأول مرة في حياته ثيابا رخيصة الثمن قدّرها رجاء بن حيوة حين ذلك باثني عشر درهما : حلة من قميص ورداء وسراويل وقباء وعمامة وقلنسوة وخفّين — وكل ذلك باثني عشر درهما [١٧٦] . ولم يترك الناسَ يتعجبون كثيراً فقال :

أما بعد فإن هؤلاء أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها . واني قد رأيت ذلك ليس عليّ فيه دون الله محاسب . واني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي . اقرأ يا مزاحم . فجعل مزاحم يخرج سجلا سجلا وعهدا عهدا وكتابا كتابا، لعمر أو للأمراء ،ثم يقرؤه فيأخذه عمر وبيده الجلم فيقطعه

---

(١٧٥) ابن عبد الحكم ص ٣٧ — ابن الجوزي ص١٥٧ — صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٧

(١٧٦) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦١ — صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٧

وما زالا حتى جاء الظهر ونادى المؤذن للصلاة [١٧٧]

هذا كان في السجلات التي حصل عليها ، أما التي لم يحصل عليها فقد أمر عمر ألا ينتفع أحد بأرض قد اغتصبها او اغتُصبت له . ونادى عمر أنْ ليس لأحد مال الا بما في كتاب الله . ولم يترك ظلامة مزرعة ، ولا طلبة لأحد عنده الا ردها اليه ، وخرج مما كان في يده من مزارع وأشياء وعبداً وأمة فجعلها جميعاً في بيت مال المسلمين .

فقه جديد

كأن لم يكن عمر قد قرأ فقهاً من قبل او اطّلع على سيرة وتاريخ ، فقد غاب عنه أمر سجلّ خيبر ، ولم يكن يدري كيف جاءه ، فلما قيل له: تركها رسول الله فيئاً للمسلمين ثم صارت الى مروان من عثمان وصارت الى أبيك منه ثم صارت إليك من أبيك — خرّق عمر سجلها وقال : أتركها كما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم [١٧٨] . وغاب عن عمر أمر « فَدَك » فردها كما كانت عليه ، بعد ان كانت أحب المقاطعات لديه ، ينفق من غلتها على مُتَعِه وثيابه ، فلما عرف أمرها ردها قائلاً : وما كان لي مالٌ أحب اليّ منها ، وأنا أشهدكم اني قد رددتها الى ما كانت عليه [١٧٩] . وكذلك خرج عمر من السهلة باليمامة ومن المكيدس وجبال الورس باليمن . وأما ما لم يكن له سجلّ من الأرض

(١٧٧) ابن الجوزي ص ١٠٦

(١٧٨) ابن عبد الحكم ص ٦٠

(١٧٩) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٥ — وسنعود الى تفصيل قضية فدك في باب « دعوة الخير » من هذا الكتاب .

فقد أمرَ وكلاءه ان يردوا ثمارَه الى بيت المال ، وأما ما كان له فيه شركاء فلم يمسَّه لحقوق شركائه فيه .

ولما كان عمر قد قضى على نفسه ألا يأخذ من بيت المال شيئاً قطّ فانه أبقى لنفقة بيته واهله عيناً بالسويداء كان استنبط ماءها في ارض خربة براحٍ ليس فيها لأحد ضربة معول ، فعملها من صلب عطائه ، فكانت تجيئه غلتها مائتا دينار وجراب فيه تمر صيحانيّ وتمر عجوة [١٨٠] ، فاكتفى بها ولم يُجْرِ على نفسه من الفيء درهماً . فلما قيل له لو أخذت من بيت المال ما كان يأخذ عمر بن الخطاب! قال ان ابن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالي يغنيني . ثم جعل نفقته من ماله في اليوم درهمين [١٨١] . وقالوا انه لم يُبْقِ في يده غير بُدا وجزّين من ارض بعلبك [١٨٢]

أُمراء بني أُمية

وحين انتهى مما أراد على المنبر نزل فجمع الأمراء وقال لهم : أدّوا ما في ايديكم من حقوق الناس ، ولا تلجئوني الى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون . واني لأحسب شطر اموال هذه الأمة

---

(١٨٠) ابن عبد الحكم ص ٤٥

(١٨١) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٤ ــ تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٣

(١٨٢) تاريخ مدينة دمشق ص ٥٨٨

(بدا) هكذا ضبطها الاستاذ صلاح الدين المنجد في تاريخ مدينة دمشق والقاموس يخففها فيقول بدا . انظر المادة في القاموس المحيط ، وقد ضبط صاحب معجم البلدان ضبط القاموس ، وجزين تضبط بضم الجيم مع كسر الزاي المخففة . ولكن اهل زماننا يشددون الزاي . وجزين الحالية في لبنان ليست من ارض بعلبك وانما يقرب الى هذه الاسماء اسماء قرى بعلبك في زماننا وجزين بالجاء

و ثلثيها في ايديكم ، فسكتوا ولم يجيبوه ، فقال : أجيبوني ، فقال هشام بن عبدالملك : والله لا نخرج من اموالنا التي صارت الينا من آبائنا فنكفرَ آبائنا ونفقر ابناءنا — حتى تزايل رؤوسنا اجسادَنا ! .

وكان عمر يعرف جهل الناس ويخشى ان يعاونوا الأمراء على مظالمهم ، فقد كان الناس وُلدوا في المظالم فظنوا أن الاسلام خلق هكذا كما رأوه ، كان عمر يعرف ذلك فقال : أما والله لولا أن يستعينوا عليّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعتُ خدودهم عاجلا ! ولكني أخاف الفتنة . ولئن أبقاني الله لأردنّ لكل ذي حق حقه إن شاء الله [١٨٣] .

وغلت ثائرة الأمراء فأرجفوا به ، وهبت عليه منهم عاصفة عاتية فوقف لها مستعرضاً حتى تقتلعه أو يحطمها ، وقد هان عليه ان يستعرض للثائرة لأن الخلافة كانت أهون عليه من كل شيء ، فلم يبال بهم حين ثاروا وحين أرجفوا . وابتدأ الأمراء يجسون نبضه ثم يتحسسون ثغور الضعف فيه ثم يهجمون عليه لعله يستسلم فيسلّم . ولكن عمر ظل قوي القلب شجاعا ، ولم ينكسر فيه ثغر يلجون منه ، ثم ردّهم رداً عنيفاً فخضعوا واستسلموا .

ووقف عمر من هؤلاء الأمراء وقوف الحصن يدفع عن نفسه ، ولو استطاع ان يزحف ليعصف بهم لفعل ، ولكنه لم يستطع او لم يشأ ، ومن ثم فقد اخطأ ، وعليه إثم الخطأ ، وكان الناس يقبلون منه أن يغير ما شاء من نظام الخلافة ووراثتها ، بل طلبوا إليه أن

(١٨٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

يغير ويبايعوا ، ولكنه تردّد ثم امتنع ، فلم يهنأوا الا بمدّته ولم يسعدوا الا في حياته .

وحرضوا عليه أول ما فعلوا عمته فاطمة أم عمر ، كانت واحدة من بنات مروان ، وكانت امرأة قد غلت وأخذتها الخيلاء ، أرسلت اليه تقول : إنه قد عناني أمر لا بد من لقائك فيه ، وأتته ليلاً على صهوة جوادها ، فأدخلها الحراس ، حتى اذا كانت عند باب قبته أخذ بيدها فأنزلها ، ثم طبّق لها وسادتين احداهما على الأخرى ثم أنشأ يمازحها فقال لها : أما رأيت الحرس الذي على الباب؟

وكانت المرأة جافية لا تنزع الى مزاح ، وقد جاءت في أمر ليس فيه هزل ، بل كله جد ، فقالت لعمر : بلى ، رأيتهم عند من هو خير منك ! فأخذ يخفف عنها فلم يستطع فتحول الى الجد وترك المزاح وقال لها : يا عمة ، أنت أولى بالكلام لأن الحاجة لك ، فتكلمي ، فهمّت أم عمر أن تتكلم فقطع عليها مشيئتها وقال : يا عمة ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبض فترك الناس على ورد مورود ، فتولى ذلك الورد رجل فلم يستنقص منه شيئاً ، ثم تولاه الرجل بعد الرجل حتى ولي معاوية فشق منه الأنهار ، ثم لم يزل الناس يكرون منه حتى تركوه يابساً ليس فيه قطرة . وايم والله لئن أبقاني الله لأعيدنه الى مجراه الأول !

قالت عمته : فلا يُسبّوا عندك اذن! فرآها عمر تتعلل بعلة المبطلين اذا غلبتهم الحجة فمالوا الى التافهة والتوّهة فقال لها : ومن يسبهم ؟ انما يرفع الرجل مظلمته فأردها عليه ! قالت : ان قرابتك يشكونك ويزعمون أنك أخذت منهم ما لم يأخذه غيرك ! قال ما منعتهم

حقاً كان لهم ! قالت : اني رأيتهم يتكلمون ، واني أخاف ان يهيجوا عليك يوماً عصيباً ! وما كادت عمته تصل به الى هذا القول حتى اهتاج عمر ولم تبق من قوة تطفىء حدته وترد غضبه فقال لها : كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره !

وهمت عمته بالانصراف فاستبقاها ، ثم دعا بدينار ونار ، فألقى الدينار على الجمر حتى حَمي ، فلما احمر الذهب وسال زالت كتابته وفسد ، فتناوله فألقاه وقد ضاعت رسومه ، فقال : اي عمة ، أما ترثين لابن اخيك من مثل هذا ؟ فقامت عمته تلفلف سربالها وهي لا تتكلم ، قد غلبتها الموعظة وأخذتها الروعة ، فقال لها عمر : تكلمي ، فقالت : أردتُ كلامك ومذاكرتك ، فأما اذ كانت هذه مقالتك فلست بذاكرة لك شيئاً ابداً . ثم مضت فأتت القوم ، ونار الذهب تتوقد في خيالها ، وتضاهىء بين الذهب وبين أهلها فتجدهم كالحطب اليابس والقطن المنفوش ، النار أسرع فيهما من الذهب ، وليس الذنب ذنب عمر وانما هو ذنب بني مروان جميعاً ، فقالت لهم : تزوجون ابنكم عبدالعزيز من آل عمر بن الخطاب فاذا نزعوا الى الشّبَه جزعتم ؟ اصبروا له ، وذوقوا مغبة امركم ! [184]

•

ولكن أمراء بني أمية وقد اشتركوا في النسب الواحد وتساوَوْا مع عمر فيه لم يَرَوا له فضلاً عليهم الا انه انفرد بالخلافة

(184) ابن الجوزي ص 116 — صفة الصفوة ج 2 ص 69 — الاغاني ج 8 ص 146

ولم تكن الشركة في النسب الا داعية للمؤازرة والمعاونة . قد كان لهم ان ينتظروا ذلك منه ، ولكنه اخلف الظن وكان اشد احتالاً واصعب علاجاً ،وصاروا يظنون كل عمل له بازائهم كالدَّين المجحود والحق المغموط ، فلما جاءوا لاقتضائه منه فثقل ثار بهم الحقد واستعرت نار الغضب . ولو أبعدهم عمر كل البعد لما كثرت مطالباته بالحقوق التي ادَّعوها ، وكذلك تعذر الدواء ووقع اليأس لأن عمر أبقى لهم عطفاً مرجواً واملاً مأمولا .

ثم حان لثورتهم ان تندلع ،فجاء احد اولاد سليمان وقد صادر عمر ارضاً له لم يكن قد رأى سجلها ، وانما علم امرها فصادرها ، فلما اذن له قال : :يا امير المؤمنين ، لم لا تردّ عليَّ ارضي ؟ فقال عمر : معاذ الله ألا ارد ارضاً رسخت لك في الاسلام ! فأخرج ابن سليمان سجلاً من كمه ودفعه الى عمر قائلاً : فهذا كتابي ! فنظر عمر في السجل وقال : لمن كانت هذه الارض ؟ قال : للفاسق ابن الحجاج . قال عمر : فهو اولى بها . فقال : يا امير المؤمنين ، فانها لي من بيت مال المسلمين . قال عمر : فالمسلمون اولى بها ، قال ابن سليمان : فرد عليّ السجل . فقال عمر : لو لم تأتني به لم اسألكه ، فأما اذ جئتني به فلا ندعك تطالب بباطل .

لقد خشن عمر على ابن سليمان وهو من أوصى له، ولقد بكى ابن سليمان فلم يرق له عمر فتركه ومضى ، ورأى ذلك كله مزاحم فرق قلبه على ابن سليمان، فلما خرج قال لعمر : يا أمير المؤمنين، ابن سليمان تصنع معه هذا ! فقال عمر : ويحك يا مزاحم ! انها نفسي

أحاول عنها ، واني لاجد له من المشقة ما أجد لولدي [١٨٥]

●

ودخل عليه عبد الرحمن بن سليمان وعنده مزاحم وقد جلس عمر على حشية خشنة ، فلما دخل عبد الرحمن أدناه منه وأقعده معه على الحشية ثم قال له : يا عبد الرحمن ، ما فعل الثلاثة؟ قال: ومن هم ؟ قال : جدك وعمك وأبوك ، فقال عبد الرحمن : ولوا مثلما وليت ، ثم دعوا فأجابوا . قال عمر : ألا أنبئك بخبرهم ؟ قال : بلى .

قال عمر : أما جدك فاني صحبته فيمن صحبه ومرضته فيمن مرضه ودفنته فيمن دفنه فلم أر أحداً أعلم بالدنيا منه ! ثم صارت الأشياء الى عمك فكنت معه كما كنتُ مع جدك فلم أر أحداً اغلب للدنيا منه ! ثم صارت الى أبيك فلم أر أحداً كان آكل للدنيا منه ! ثم أقبلتْ اليّ تريدني على ديني !.. ومضى يتم كلامه فخنقته العبرة فلم يتكلم ، فقال مزاحم : قم يا عبد الرحمن . قال عبد الرحمن فقمت ، فما بلغت باب البيت حتى سمعته يخور بكاءً وانتحابا [١٨٦]

●

وكان عنبسة بن سعيد بن العاص من أشراف بني امية وسادتهم ، وكان اكثر الناس مجاورة للخلفاء وداً لهم ، وكان ذا مال لا يحتاج معه الى زيادة ولكنه ما فتيء يزداد ويطلب من الخلفاء وهم

---

(١٨٥) ابن الجوزي ص ١١٨

(١٨٦) ابن عبد الحكم ص ١٦٠

يعطونه فلا يشبع . جاءه آخر عطاء من سليمان قبل موته وكان عشرين الف دينار كتب له بها كتابا ليقبضها من بيت المال ، فدار عنبسة في الدواوين بكتابه حتى انتهى الى ديوان الختم ، فتوفي سليمان فأقفل دونه بيت المال ، ورُدّ الكتاب حتى يأمر الخليفة الجديد من جديد .

ولم يبتئس عنبسة لأن عمر صديقه ، وبينهما مودة عظيمة ، فغدا عليه يريد كلامه في عطاء سليمان ، فوجد بني امية بباب عمر يريدون الاذن عليه ليكلموه في أمورهم ، فلما رأوا عنبسة قالوا : ننتظر ما يصنع به ، ثم قالوا لعنبسة : أعلم امير المؤمنين مكاننا ، فدخل عنبسة على عمر ورأى أن يبدأه بكلامه عن قومه ثم يذهب الى الحديث عن نفسه ، فقال له : يا امير المؤمنين ، ان لنا بك قرابة وان قومك بالباب يسألونك ما كان يجريه الخلفاء عليهم قبلك ، فقال عمر : يا عنبسة ، لن يتسع مالي لكم ، واما هذا المال فحقكم فيه كحق رجل بأقصى الأرض ، فما يمنعه من أخذه في حينه الا بعد مكانه ، ووالله اني لأرى ان الأمور لو استحالت حتى يصبح اهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بكم بائقة من عذاب الله !

قال عنبسة : يا امير المؤمنين فان قومك حينئذ يسألونك ان تأذن لهم ان يتفرقوا في البلاد ويضربوا فيها ، فقال عمر لهم ذلك ما شاءوا ، وقد اذنت لهم الا ان يؤذوا احداً من اهل الذمة ! فقال عنبسة : وانا يا امير المؤمنين ، ان سليمان كان امر لي بعطاء فلما انتهى الى ديوان الختم مات سليمان ، وامير المؤمنين اولى

باستتمام الصنيعة عندي ، وما بيني وبينه اعظم مما كان بيني وبين سليمان !

قال عمر : وكم ذلك ؟ قال عنبسة : عشرون الف دينار ، فصاح عمر كأنه ذُعِر : عشرون الف دينار ؟ عشرون الف دينار تعني اربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها الى رجل واحد ؟ والله مالي الى ذلك سبيل !

قال عنبسة : اذن فأذن لي ان اذهب معهم ، قال : قد اذنت لك ! وان احبكم الينا من كفانا مئونته ! قال عنبسة : فخرجت من عنده ، فلما صرت عند الباب ناداني : ابا خالد ، ابا خالد ، فرجعت اليه ، قد ظننته رجع عن رأيه ، فقال لي : اكثر وانت في ضيعتك من ذكر الموت ، فان كنتَ في ضيق من العيش وّسعه عليك ، وان كنت في سعة منه ضيّقه عليك ! كأنما هو يتهكم بي ! ثم مضيت اخرج فرجع فناداني ، قد عطف عليّ وتذكر حرمة صداقتي فقال لي : ولكني ارى ان تقيم ، فانك رجل كثير المال ، وانا ابيع تركة سليمان ، فعليك ان تشتري منها ما يكون لك فيه ربح وعوض عما فاتك ! قال عنبسة : فأقمت تبركاً برأيه ، فابتعت من تركة سليمان بمائة الف ، فخرجت بها الى العراق فبعتها بمائتي الف .[١٨٧]

وأجمع الأمراء على رأي رأوه حسناً ، فرأوا ان يعرضوه على عمر ليأخذ به ، وذلك ان يمضي رأيه فيما تحت يده من المال ،

---

(١٨٧) ابن الجوزي ص ١١٤ ، ١١٧ ـ ابن عبد الحكم ص ٥٦ ، ٥٨ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٥

ولكنه يَدَع ما قد قُسِمَ على الأمراء من قبل ، ولا يرجع على حقوقهم بنقص ولا محق ، فما مضى فات وصار حقاً ، ولم يكن من عمل عمر حتى يخاف ذنبه ويحمل إثمه — ان كان فيه ذنب كما تورّع فرأى - قد رأى الامراء ذلك واجمعوا عليه وفرحوا به حين ظنوه حسناً .

ولم يبق إلا ان يمضي به من لا يهاب، فحمله هشام بن عبدالملك الى عمر ، ولكنه لما كان عنده نَصَل من الشجاعة التي ابداها عند قومه حين تعرض لحمل امانتهم الى عمر ، وقال لعمر : يا امير المؤمنين ، اني رسول قومك اليك ، وان في انفسهم ما اكلمك به ، وانهم ليقولون : استانف العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخل بين من سبقك وما ولوا بما عليهم ولهم !

وعرف عمر ان هشاماً يزعم القوم ولكنه يتوارى فيهم، فقال له : ارأيت يا هشام ان جئت بسجلين احدهما من معاوية والآخر من عبد الملك بأمر واحد ، فبأي السجلين آخذ ؟ قال هشام : تأخذ بالأقدم ! فقال عمر : فاني وجدت كتاب الله الأقدم ، فأنا حامل عليه مَن اتاني بمن تحت يدي وفيما سبقني ! [188]

ثم لم يترك الأمراء باباً الا ولجوا منه اليه ليردّوه ، ولم يدع وسيلة ولا حدة الا اصطنعها معهم ليردهم ، حتى ضاق بهم وضاقوا به ، وكان اذا نظر الى بعضهم قال: اني أرى رقاباً سترد الى أربابها [189] . وما زالوا يثورون به حتى جاءه كتاب من

(١٨٨) ابن الجوزي ص ١١٨

(١٨٩) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

احدهم فاستشاط له غضباً فقال : ان لله عليّ من بني مروان يوما يكون ذبحاً ، وايم الله لئن كان ذلك الذبح على يدي!.. فلما بلغهم ذلك كفوا ، وكانوا قد علموا صرامته وانه اذا وقع في امر مضى فيه .

ولقد طالما تمنى عمر ان يأتي اليوم الذي يكون فيه منّ لله وفضل باستئصالهم ، وقد كان يبلغهم تمنيه ، فاذا بلغهم كفوا ، ولم يكن يدفع عمر عنهم الا انهم يقرون بما انزل الله وبما جاء به رسوله ، ولكنهم اسرفوا على علم منهم ان الاسراف محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء فضلوا [١٩٠]

وكان بعض هؤلاء الأمراء من الجواري امهات الأولاد ، وكان من بينهن جارية يقال لها « بُنَانَة » . كانت امة في قبيلة يقال لها « السَّكُون » ، وكانت صناجة تطوف في اسواق حمص وتدور على حوانيتها . وحملت بنانة فيما حمل من الهدايا الى الوليد فتزوجها واولدها ولدا يقال له عمر ، فنشأ عمر هذا متكبراً جباراً عنيداً .

فلما كان عمر بن بنانة صبياً ، وأحبه ابوه الوليد حباً كثيراً استعمله على قطعة من جند المسلمين ، وجعل له رأياً ماضياً في ذلك الجيش . ولم يكن لابن بنانة من فضل في هذه التولية إلا انه ابن الخليفة الذي يحبه ويؤثره ويفضله على الناس ، ولا سبب لذلك الا حب طائش . فلما اخذ عمر بن عبدالعزيز يردّ المظالم : ما كان في يده وما كان في يد اهله ، غضب عمر بن بنانة واستكبر

(١٩٠) انظر محاورة عمر للخوارج بتاريخ الأمم الأسلامية ج ٢ ص ١٨٢

واستعلى وكتب الى الخليفة يقول :

انك ازريتَ على من كان قبلك من الخلفاء ، وعبت عليهم ، وسرت بغير سيرتهم وشَنْئاً لمن بعدهم من اولادهم . قطعت ما امر الله به ان يوصل اذ عمدت الى اموال قريش ومواريثهم فأدخلتها في بيت المال جوراً وعدوانا . ولن تترك على هذا .

وجاء الكتاب عمر فكتب الى ابن الوليد يقول : اما بعد ، فانه بلغني كتابك ، وسأجيبك بخير منه . اما اول شأنك يابن الوليد — كما تزعم — فأمك بُنانة أمة السكون ، وامك صناجة كانت تطوف في سوق حمص وتدور في حوانيتها ، ثم الله اعلم بها ... اشتراها ذُبيان من اموال المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك فبئس المحمول والمولود ! ثم نشأت فكنت جباراً عنيدا .

وتزعم اني من الظالمين لما حرمتك واهلَ بيتك في ء الله عز وجل الذي فيه حق القرابة والأرامل المساكين ، وإن اظلم مني واترَكَ لعهد الله من استعملك صبياً سفيهاً على جند من جنود المسلمين تحكم فيهم برأيك ، ولم تكن له في ذلك نية الا حب الوالد لولده ، فويل لك ! وويل لأبيك ! ما اكثر خصماءكما يوم القيامة ! وكيف ينجو ابوك من خصمائه ؟

وان اظلم مني واترَك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام ، وان اظلم مني واترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك — اعرابياً جلفاً — على مصر ، واذن له في المعازف واللهو والشراب ، وان اظلم مني واترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهماً في خمس العرب !

فرويداً يابن بنانة ! فلو التقى حاقتا البطان ١٩١ ، ورُدّ الفيء الى اهله ـ لتفرغتُ لك ولأهل بيتك فوضعتهم على المحجة البيضاء ، فطالما تركتم الحق واخذتم في بنيّات الطريق ١٩٢ . ومن وراء هذا ما ارجو ان اكون رأيته في بيع رقبتك وقَسْم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل فان لكل فيك حقاً .

ولقد هممت أن ابعث اليك من يحلق دلادلك ، ويجزّ جمتك جمة السوء ١٩٣ ، فاني اعلم انها من اعظم المصائب عليك ! والسلام علينا ولا ينال سلامُ الله الظالمين ١٩٤

●

وكان للوليد ابن آخر يقال له رَوْح قد نشأ في البادية فتبدّى وجفا كأنه اعرابي ،وصارت له غلبة على الناس بالتوعد والتهديد. وأقطعه ابوه في حوانيت حمص وكتب له بها سجلًا ، فجاء اهل حمص يشكون روحاً واباه الوليد ، فلما امر عمر روحاً ان يخلي حوانيت الناس قال له : هذا معي بسجلّ الوليد، فقال عمر : وما يغني عنك سجل الوليد وقد قامت البينة على انها لهم ؟ ثم قام روح واهل حمص ومضوا ، فتوعد روح حمصياً منهم فرجع الى عمر يشكو له فنادى عمر كعب بن حامد احد احراسه وقال له: اخرج الى روح بن الوليد فان سلم اليهم حوانيتهم فذاك وان لم

(١٩١) يريد أن صار البال رخيا دون اشتغال.

(١٩٢) بنيات الطريق ـ الترهات وسفساف الأمور.

(١٩٣) يريد بالدلادل الاضطراب ـ والجمة مجتمع شعر الرأس .

(١٩٤) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٥ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٣٠ ـ ابن الجوزي ص ١١٤

يفعل فأتني برأسه ! ورأى روح الحرسيّ قادماً وقد سلّ سيفه فخلع فؤادُه ، قال له الحرسيّ : قم فخلّ حوانيتهم. فقال : نعم نعم ، ثم ذهب ذليلاً مقهوراً يخلي الحوانيت [١٩٥]

ثم رد عمر كل ارض اغتصبها الوليد : ردّ ما اغتصب من اعراب البادية ورد على ابراهيم بن طلحة داره المغصوبة : اخذها عبد الملك ثم الوليد ثم سليمان ، فردها عمر [١٩٦] . وهكذا كان ما رآه عمر من المظالم دافعاً له بعزم لا يغلب الى التسلق الى قمة العظمة بفرض العدالة وردّ المظالم ، ولم يبال ان ينقطع ما بينه وبين اقربائه متى كانوا ظالمين .

أرباح التجار

وابى عمر على التجار ان يربحوا اضعافاً مضاعفة ، ولكنه لم يجد لهم عقوبة على ذلك فتركهم على كرهٍ منه ، وقد حدث انه لما كان اسامة بن زيد التنوخيّ والياً على خراج مصر ان ابتاع من موسى بن وردان فلفلاً بعشرين الف دينار فخزنه اسامة في دار الفلفل ، وكان اسامة اشتراه للوليد بن عبدالملك ليهديه الوليد الى صاحب الروم فخزنه فيها ، فحين ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز شكا موسى بن وردان الى عمر ليُدْفع اليه الثمن .

قال موسى بن وردان : دخلتُ على عمر بن عبد العزيز فحدثته بأحاديث عمن ادركته من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكنتُ عنده بمنزلةٍ ؛ أدخل اذا شئت واخرج اذا

(١٩٥) ابن عبد الحكم ص ٥٩

(١٩٦) ابن الجوزي ص ١٠٤ — النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٦٠

شئت ، فسألته الكتابَ الى حيان بن سريج في عشرين الف دينار استوفيها من ثمن فلفل يدفعها اليَّ ، فقـــال لي : ولمن العشرون الف دينار ؟ قلت : هي لي ، قال : ومن اين هي لك ؟ قلت : كنت تاجراً ، فضربني بمسطرته ثم قال : التاجر فاجر والفاجر في النار ! ثم قال : اكتبوا الى حيان بن سريج !

قال موسى : فلم ادخل عليه بعدها ، وامر حاجبـــه الا يدخلني عليه [١٩٧]

عزل الولاة

قال سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب حين استشاره عمر بن عبد العزيز في العمال : ولا يمنعنَّك من نزع عامل ان تقول لا اجد من يكفيني عمله ، وانك اذا كنت تـنزع لله وتعمل له اتاح الله لك رجالاً وجاءك باعوان ، وانما العون من الله على قدر النية ، فاذا تمت نية العبد تم عون الله له [١٩٨] .

وكان مات الحجاج بن يوسف ولكن ظلمه لم يمت وخلفاءه ما يزالون يلون البلدان وصليل سيوفهم ما يزال يقعقع في الآذان ، فأنشأ عمر – في سرعـــة واستعجال – يعزل الولاة الذين ظلموا وسفكوا الدماء ، فعزل كل رجل ولغ في دماء المسلمين ليهدىء النفوس ويريح الجنوب ، وحرّضه قول سالم بن عبدالله فقيه المدينة فأمر بعزل كل ظالم وان كان ذا قرابة لأمير المؤمنين .

وعزل عمر اسامة بن زيد عن صدقات مصر ويزيد بن المهلب

---

(١٩٧) فتوح مصر واخبارها ص ٩٩

(١٩٨) ابن الجوزي ص ١٣٠

وصالح بن عبد الرحمن عن العراق والحارث بن عبد الرحمن الثقفي عن الأندلس ومحمد بن يزيد بن مسلم عن افريقية ، وعزل امثالهم.

ونفى اهل بيت الحجاج الى اليمن ولم يستعمل احداً منهم على سلم او حرب ليأمن مكرهم ، ونفى امثالهم . ونزع سيف خالد ابن الريان وطرده وسيف احد رجال الحجاج وردّه من دابق لئلا يحارب في جنده وخفض عطاءه من الفين الى ثلاثين ، ونزع سيوف امثالهم . وجاءه عامل معزول يعتذر له بأنه لم يعمل الا قليلاً للحجاج فقال له: حسبك من صحبة شرٍّ يومٌ او بعض يوم [١٩٩]

مسلمة بن عبد الملك

ولم يعد احد من بني امية مقرباً الى عمر غير صهره مسلمة بن عبد الملك فانه كان اخا فاطمة ،وقد احب عمر ولزمه وتبعه واطاعه، الا فيما احل له من الطعام ، فقد اسرف فيه كل الاسراف . وبلغ عمر ما يفعله مسلمة فود لو انقطع عن شهوته للمباحات فانها توشك ان توقعه في المحرمات ، فأمر عمر ان يبكّر به عليه،ثم امر بعدس وبألوان من لحم وطعام طيب ، فلما غدا مسلمة عليه اقام عنده حتى تعالى النهار ووجد الجوع ، فقام ليذهب فحبسه عمر عنده ، فأقام حتى انتصف النهار ، حتى اذا بلغ منه الجوع ووجد حرارته وعرف عمر – دعا بالطعام فقربت اليه ثريدة العدس فأقبل عليها مسلمة فأكل اكل مجهود قد بلغ منه الجوع ، فلم يأل حتى تملّأ ، فأمر أن تُرْفع ، ودعا له بالطعام الطيب الذي أعدّ ، وقال له :

(١٩٩) ابن الاثير ج ٥ ص ١٠ – ابن الجوزي ص ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٦– ابن عبد الحكم ص ٣٤

كل ، قال : قد شبعت ، قال عمر : كل ، قال : قد شبعت ، ما في سعة ! فقال عمر : فكيف بالسرف في الطعام والتقحم في النار وهذا يجزىء عنه ؟ فصبر بعد ذلك مسلمة عن سرفه في الطعام [٢٠٠]

مشية الرهبانية

كان عمر في غابر زمانه يتطيب ويسرف في تطيبه فاذا ادّهن بما صنع من الطيب رُؤِي العنبر على لحيته كأنه الملح ، ولكنه ترك ذلك كله وجعل يسدّ أنفه اذا وجد رائحة الطيب حتى يذهب عنه . وحين ضيّق على نفسه في الطعام والفاكهة ودام على ضيقه اسودّ واحترق ولصق جلده بعظمه حتى لم يعد بين الجلد والعظم لحم . وأقدم عمر على الصفاء ورأى من يعجز عن قياد نفسه في الأكل غير مستطيع أن يقود غيره ، ورأى من تحكمه بطنه وتذله لا يستطيع أن يقنع أحداً بأنه قويّ الارادة . ولم يصف صوت العود الا حينما خلا جوفه فترنم ، وانما تنسج الأضراس ضخامة البدن وبلادة العقل وموت الشعور .

وأقدم عمر على الصفاء فصفا ولكنه ظن أنه لم يفعل شيئاً ، فان الطعام والشراب والمسكن أمور مباحة ، وكان التورع عن المباحات عريقاً في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان في عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وفي عمار وأبي ذر وسلمان الفارسي وابن الجراح وغيرهم [٢٠١] ، ولكن عمر بن عبد العزيز نفّره من المباحات علمه وتفكّره وتعلقه بالآخرة فعدها اسرافا والاسراف

---

(٢٠٠) ابن عبد الحكم ص ٤٩

(٢٠١) الموافقات ج ١ ص ٦٥

ذميم ، ولذلك كان من يسأله فيقول له كيف اصبحت ؟ يسمعه يجيبه : أصبحت بطيناً بطيئاً متلوثاً في الخطايا أتمنى على الله الأماني ! [٢٠٢]

واستطاع عمر أن يغير من نفسه كل مظاهرها وعاداتها سوى مشية التبختر العمرية التي كان يمشيها صبياً ووالياً بالمدينة، فقد صارت له دَيْدَنا ، وقد حاول حين استخلف أن يغيرها فلم يستطع ، فطلب من مزاحم مولاه أن يعاونه وينبّهه كلما مشاها الى أن يغيرها ، فجعل مزاحم يراقبه ويدلّه ، ثم يرجع فينسى ويخلطها ، ثم لا يستطيع فيرجع إليها ، وما زال بها حتى اوشك ان يغيرها قليلا [٢٠٣] فصارت كمشية الرهبان .

قال علي بن جذيمة : رأيته في المدينة وهو من أحسن الناس لباساً ، ومن أطيب الناس ريحاً ، ومن أخيل الناس في مشيته ، ثم رأيته بعد ذلك يمشي مشية الرهبان [٢٠٤]

عينين عمر

لقد وجمَ عمر منذ ولي الخلافة وأمسك عن المزاح وعاد يراه حديثاً خسيساً يورث الضغائن ، ولم يَرَ أخسّ منه ، وصام الاثنين والخميس والعشر وعرفة وعاشوراء ، ولم يدع المصحف الا نظر فيه كل يوم ولو قليلاً . إنه لم يكثر ولم يفرط في التعبّد ، ولكنه داوم وكان في صلاته أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد

---

(٢٠٢) ابن الجوزي ص ١٤٧ ، ١٥٠ ـ ابن عبد الحكم ص ٤٤ ، ٥٠

(٢٠٣) ابن عبد الحكم ص ٢١

(٢٠٤) ابن الجوزي ص ٣٢

حدث أبو قِلابَة قـــال : حدثني عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة رسول الله في ركوعه وسجوده انـه كان يصلي نحواً مما رأى عمر بن عبد العزيز يصلي [٢٠٥] .

وكان عمر ماضياً قدماً لا يتأخر ولا يلتوي ، آخذاً يتعالى في صفاته ويسمو ، ولا ينزل عن عادته في السموّ والتعالي ، وما كان يزداد عاماً بعد عام الا فضلا . ولكن الذكريات كانت تمرّ به فيضاهيء بين ماضيه وحاضره فيحنّ لنعماه التي مضت حنين المودّع الذي لا يرجو أن يعود .

كان يضاهيء بين عيشه في المدينة ومصر وعيشه الأول بالشام وبين عيشه اليوم فيقول: أين عيشنا اليوم من عيشنا إذ كنا بمصر! لقد رأيتني وكنا لو ضافني أهل قرية لوجدتُ مـا يعمّهم ! وأين عيشنا هذا من عيشنا بالمدينة ! [٢٠٦]

ومرّ يوماً بزوجته فاطمة فضرب على كتفها وقال : يا فاطمة لنحن ليالي دابق أنعم منا اليوم ! فقالت له : والله ما كنتَ على ذلك أقدر منك اليوم ! فأدبر عنها وله حينئذ حنين ، وهو يقول: يا فاطمة ، إني أخاف النار ! يا فاطمة إني أخـاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم [٢٠٧]

---

(٢٠٥) تاريخ داريا ص ٨٣

(٢٠٦) ابن الجوزي ص ١٥١

(٢٠٧) ابن عبد الحكم ص ٤٧